مجلة المرابط

العدد : ٢٠٧ الموافق في ذو القعدة ١٤١٩ هجري ٣ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : بين السلف السابق والخلف اللاحق !!	بقلم : ماجد أرسلان

ربما يتبادر إلى الذهن من خلال هذا العنوان أنني تناولت بحثاً فقهياً لأدلي بدلوي حول موضوع من الموضوعات الفرعية ، كثر الجدل واللغط حوله بين السلف والخلف ، بعد قيام معارك بين القديم والجديد ! فأبادر قائلاً : ليس هذا بيت القصيد ولا مربط الفرس - أبعدنا الله عن مماحكاة الهوى ، والجدل البيزنطي بعد المشرقين والمغربين - إنما المقالة هي :

أن الله عز وجل لم يخلق الخلق عبثاً ، ولم يتركهم هملاً ، ولم يدعهم سدى { **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون ، فتعالى الله الملك الحق...**} [المؤمنون : ١١٥-١١٦].

لا شك أن المآل إليه ، والرجعة واقعة ، والحشر متحقق تحقق اليقين عند الرسل الكرام ، فكما أن لكل بداية نهاية ، فإن لكل مقدمة نتيجة ! يقول الحق جل وعلا : { **وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ، ولقد علمنا المستقدمين منكم ، ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم إنه عليم حكيم** } [الحجر : ٢٣-٢٥] .

فالحشر للحساب والمحاسبة مصير كل مخلوق من بني آدم ، بدءاً من أبيهم آدم عليه السلام - وانتهاء بآخرهم من نسله ، وذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين { **إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً** } [المعارج :٦-٧].

فهل المعول في التنافس في الدنيا ، والفوز في الآخرة بالدرجة العُلى لمن حاز في الخلق أولاً قصب السبق زماناً ؟ أم المعول في هذا لاعتبار غير السبق الزماني ؟

لاشك أن صفات الخالق - عزّ اسمه - مطلقة وليست نسبية ، كاملة وليست ناقصة ولا مضطربة ، متناسقة متآلفة ، وليست متناقضة ولا متضادة ، وأنه - سبحانه - كما جعل التنافس بين عباده في جميع أعمال البر والخير ، وتكاليف الاستخلاف مفتوحاً بين كل جيل من أجيال الخلق على حدة ، جعل هذا التنافس مُشرعاً بين كل الأجيال المتعاقبة من بداياتهم حتى نهاياتهم ، يقول النبي ﷺ : " أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم " [صحيح الجامع ٢٥٢٦/١].

في هذا الحديث تتقدم نحونا صورة باهرة الألق عن تنافس هذه الأمة الخاتمة مع من سبقها من الأمم ، وكيف أنها ستحوز - بإذن ربها - ثلثي صفوف أهل الجنة ومقاعدها لتقدمها بأعمال البر والخير ، ولالتزامها الطاعة والعبودية والتوحيد لله عز وجل ، على من سبقها في الخلق أزماناً وأزماناً مع العلم أن

نسبتها العددية مع غيرها من الأمم ضئيلة ضئيلة !! ويقول ﷺ أيضاً : " نحن آخر الأمم وأول من يُحاسب ... فنحن الآخرون الأولون " [صحيح الجامع ٦٧٤٩/٢]. " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ... " [صحيح الجامع ٦٧٥٢/٢].

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى تتجلى مقتضياتها في الخلق كافة ، وتظهر آثارها المتآلفة في الحكم والمحاكمة ، والحساب والمحاسبة ، والتقدير والايجاد ، والقبض والبسط والتقديم والتأخير ... لكل من خلقه الله وكلفه في هذه الحياة لتحقيق العبودية للحي القيوم ، الوهاب التواب الحسيب الوكيل ... والله عز وجل حدثنا عن الماهيّة من الخلق بقوله : { **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** } [الذاريات : ٥٦-٥٧] .

إذن ! هي العبادة المطلقة لله وحده والتي تعني الطاعة والانقياد التامين الكاملين لأمره في كل ما أمر ، ولنهيه في كل ما نهى ، من خلال منهجه القويم في قرآنه الحكيم ، وسنة رسوله الكريم . وما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الحج ... إلا صور من صور الطاعة والانقياد لأمره ، وما ترك الربا والزنا وسائر المحرمات إلا صورة من صور الطاعة والانقياد لنهيه - عزّت صفاته - .

فالعبد الملتزم بأداء أمانة التكليف على الوجه الذي يحقق وجوده ، كما أراد الرقيب الخبير .. يكون زمنه الإيماني هو الزمن المتقدم - في ميزان الله- على من كان على غير هذه الشاكلة ، وإن كان سابقاً بآلاف السنين ! . وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : أن الذي تقوم عليه الساعة ولم يدرك من الإسلام إلا أن يردد لا إله إلا الله فقط بلسانه لأن آباءه كانوا يقولونها وهو قد ورثها عنهم ، فهي تنجيه من النار التي يغوص فيها أبو لهب الذي مات كافرا بها وبرسالتها ، وكان سابقاً في الخلق شأواً بعيداً ، وهذا السبق الزمني لم ، ولن يشفع له عند ربه معاصرته للنبي ﷺ ، ورؤيته له ومحادثته إياه ونسبه منه !!

يقول النبي ﷺ : " يُدْرَسُ الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسدى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير ، والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة " **لا إله إلا الله** " فنحن نقولها . فقال صلةُ (الذي كان يسمع من حذيفة راوي الحديث) ما تغني عنهم " لا إله إلا الله " وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ! فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردها عليه ثلاثاً ، كل ذلك يعرض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال يا صلةُ : تنجيهم من النار ، تنجيهم من النار ، تنجيهم

من النار " [صحيح ابن ما جة ٣٧٨/٢].

كذلك الذي يكون أيام الفتن الطاغية ، والشدائد اللاغية ، واغتراب الدين ، غربة جهل أبنائه ، وغربة عجز علمائه ، ثابتاً ثبوت الشمس في مجرتها ، يواجه في تحد عملاق ، أعاصير البلاء والابتلاء بصورها العديدة ، وهو لا يلين ولا يحيد عن طريق الحق ، له أجره بحسب موقعه وصموده وثباته في موقعه ، واستثماره لزمانه ، وفاء لدعوته ، وإخلاصاً لدينه ، وصدقاً لعبادته لربه .. فهو يواجه بثبات وعزم وإصرار

* اعصار محاربة الدين وإقصائه عن كل ميادين الحياة مع السخرية منه في كل ساح ونادٍ ..

* وإعصار محاربة أهله بشتى صنوف المحاربة بدءاً بالغذاء والمسكن والدواء وانتهاء بالفكر والثقافة والتاريخ والسياسة والاجتماع ..

* وإعصار انتفاش الباطل وعربدته الوقحة في كل صعيد ، وإيقاع أبشع صنوف الظلم والإساءة على أهل الحق في كل زمان ومكان ، مع الملاحقة المجنونة والمطاردة المخبولة بكل صنوفها وألوانها !!

* وإعصار استعلاء الرذائل الخلقية الخبيثة وانتشارها انتشار النار في الهشيم مدعومة بكل الوسائل التكنولوجية الحديثة ، والدعاية الشيطانية الساحرة .

* وإعصار بروز الأخلاق الاجتماعية الرديئة وسيطرتها على الصغير والكبير ، والخفير والأمير .. حيثُ يصدق الكاذب ، ويُكذَّب الصادق ، ويؤتمن الخائن ، ويخون المؤتمن ، مع قيام أسواق النفاق والدجل ، والمخاتلة والمخادعة ، والإطراء والمديح الكاذب والطبل والزمر لكل خوان أثيم وأفاك زنيم ، هو عند الله رُويبضة حقيرة ليس إلا ، مهما نفخوه ليجعلوا من الفأر أسداً !

* وإعصار جُفُول أهل الخير والصلاح ، ونكوصهم عن أداء الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وبالمقابل جراءة أهل الشر والإثم بالدعوة العريضة إلى المنكرات باسم الفن والثقافة ، ومحاربة المعروف على أنه منكر ، ودعم الخبائث على أنها فضائل وانتهاك المحرمات على أنها موروثات بالية ، تعيق حركة التقدم .. وما ذاك إلا لتبدل المفاهيم وتغير التصورات ، وزوال الثوابت والقيم الأصيلة ، فلا الأبيض أبيض ، ولا الأسود أسود ، ولا الذكر ذكر ، ولا الأنثى أنثى !!

* وإعصار الإحباطات واليأس القاتل ، والقنوط المدمر ، حيث لا ترى إلا سلوكيات اللامبالاة التعيسة هي المستحكمة والمتمكنة من العقول والقلوب ، فلا زلازل الفتن ولا براكين القهر تحرك

ساكناً ، ولا استلاب الأعادي للمقدرات والثروات ، واغتصاب الاراضي وانتهاك الأعراض تُسكن هيجاناً أعمى ، أو تغتال ظلماً معربداً في طول دنيا المسلمين وعرضها !!

{ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** } [الروم : ٤١]

أجل ! إذا ما وقف الغريب صامداً في وجوه هذه الأعاصير وغيرها صالحاً ومصلحاً ، قد رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، وقد عزم على التغيير في نفسه وفيمن حوله يردد ما قاله النبي ﷺ للمشركين إبان الدعوة وهم يراودونه بشتى أفانين الإغراء تارة والتهديد أخرى :

" ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي فيها شعلة : يعني الشمس "[الصحيحة ٩٢/١] . فحينما يقبس هذا الخلفُ الصامد عزمات النبوة قبسة مضاء وسناء ، وهو مصابر ومرابط ليرجع الحق إلى نصابه، لاشك أنه نائل نصيباً من دعوة النبي الكريم وبشراه : " طوبى للغرباء ، قيل ومن الغرباء يا رسول الله ؟. قال : ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم " "[الصحيحة ١٦١٩/٤] .

فكل من يقوم بهذا ولم يجد على الخير أعواناً ، ويستضيء بصفحات المجد العتيد من تاريخ الرسل الكرام ، والمصلحين الكبار حتى ينتصر الحق على الباطل ، والخير على الشر ، والفضيلة على الرذيلة .. كيما تنكفئ أخلاق السوء والجهالة إلى جحورها خاسئة ذليلة مطرودة .. وبخاصة وهو يستمع إلى ربه قائلا ً: { **وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ، إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين** } [الأنعام : ١٣٣-١٣٤] .

إن كل من يقوم بهذا يكون زمنه أربى عند الله - في بعض المواقف والحالات - من زمن من كانوا مع الرسل الكرام في ملاحمهم وأعمالهم .. لأنهم كانوا يجدون على الخير أعواناً كثيرين كثيرين !!

ألم يقل الرسول ﷺ لأبي ثعلبة الخُشني الذي سأله عن قول الله تعالى { **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** } . فأجابه : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم ، قلنا : منا أم منهم ؟ قال : بل منكم " [أبو داود والترمذي]

إذاً ينبغي على كل خلف حصيف أن لا يتمنين زمن كذا أو زمن كذا ، لزمن غيبه الله عز وجل عنه

وقدَّر خلقه بما علمه - سبحانه - بعلمه المطلق أنه لا يصلحه إلا الزمن الذي أوجده فيه ، فليرضى به وبما قسمه الله ، فإن الفردوس الأعلى لا تضيق مساربه بكل السالكين ، ولا يشتد كظيظ الزحام فيه على كل الثاوين والمقيمين ، فأبوابه مفتوحة ليتنافس المتنافسون في أعمال البر والخير التي لا تحصى ولا تعد !!

فلرب هذا المتمني لو كان زمن الرسول ﷺ - لكان في صف أبي جهل وأبي لهب ، وقودا لنار جهنم التي تميّز من الغيظ ، مغلولا في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، مقحوماً في أمه الهاوية !!

إذن لا بد من الرضى لما اختاره الله ورصيه وقدره ، ولا بد من الثبات على عبودية الله وطاعته وتوحيده ، حتى الملتقى ، ولابد من تذكر شوق النبي ﷺ لإخوانه ، وأن يعتبر هذا الخلف الغريب أن الرسالة الموجهة منه ﷺ هي له وحده ، وذلك حين دخل المقبرة ، وغلبه الشوق لرؤية إخوانه فقال : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددتُ أنّا قد رأينا إخواننا ، قالوا : أولسنا إخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا : وكيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك ؟ قال أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجلة ، بين ظهري خيل دُهمٍ بُهمٍ ، ألا يعرف خيله ؟. قالوا بلى ، قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرَطُهم (أسبقهم) على الحوض ، ألا ليذادن رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعير الضال ، أناديهم : ألا هلمَّ ، ألا هلم . فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك ، فأقول : سحقاً فسحقاً فسحقاً " [صحيح الجامع ٣٥٩٢/٢].

نعم ! سحقاً سحقاً .. لمن بدل وغير وعصى ولو كان سابقاً أزماناً وأزماناً .. وطوبى طوبى لمن التزم منهج ربه وطاعة خالقه ، السبيل الأقوم ، ولو كان لاحقاً متأخراً أزماناً وأزماناً !! يقول تعالى : { **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** } [الرعد :٢٩]

أيها الأخ الحبيب .. طالما كان المصطفى ﷺ في شوق لرؤية إخوانه الصابرين على مثل جمر الغصنى أطواداً ، الثابتين على الحق أوتاداً ، الذين أتوا بعده وآمنوا به ولم يتشرفوا برؤية طلعته البهية .

فعليك يا أخي أن تجدد العهد مع الله وأن تستقيم على نهج النبي ﷺ في العسر واليسر والمنشط والمكره ، لكي تكون من الذين وصفهم الحبيب ﷺ قبل أربعة عشر قرنا وهم في أحشاء الغيب يتقلبون بين الصلب والترائب ، حين قال :" إن ناساً من أمتي يأتون بعدي يودُّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله " [الصحيحة ١٦٧٦/٤].

إخوة الإيمان .. طلائع الإسلام في كل مكان وزمان ، ألا تكونون من هؤلاء ومعهم زمن ردةٍ ولا

أبا بكر لها ، لتردوها إلى أعقابها ؟! ألا تكونون أبناء الإسلام في هذا الزمان ، زمن الغربة والاغتراب ؟! ألا تكونون النجوم الزاهرة في ليل هذه الأمة البهيم ؟! ألا تكونون شموساً طالعة في ضبابها المغشي للأبصار ، والريح المرسلة حماءة قيظها ، والوابل الصيب في سني قحطها وجدبها ، والكواكب الدرية لإرشادها إلى ربها الجليل ؟!

ألا تكونون كذلك لتكونوا بمعية المصطفى ﷺ ولتحشروا تحت لوائه وتشربوا من حوضه ماءً زلالاً ، وتفوزوا بمقعد صدق عند مليك مقتدر ، ألا ترضون بذلك وأنتم تسمعون ربكم : { **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى ، جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى** } [طه : ٧٥-٧٦] .

ألا ترضون ..ألا ترضون .. ؟!